صور من الحياة :

قبعة تتفلسف

للأستاذ كامل محمود حبيب

يا صاحبي ، أي شيطان وسوس لك فرحت تمتهن الوطن والدين واللغة ، وجئت تريد أن تسترق الناس منها جميعاً لتذرهم — بعدها — حطاماً خوى من الكرامة والرجولة والإنسانية ؟

لقد كان حديثاً عجباً أن تقول « أنا لا أومن بالوطن ولا بالدين ولا باللغة لأنها قيود تقال . وأحر بمن يتحرر منها أن يسود العالم كله .

أما الوطن فهو كلمة براقة تستهوي القلوب الضعيفة وتسترق الألباب السقيمة ، وتخلب العقول الجامدة . على حين أنها — في رأي الفيلسوف — فارغة من المعنى خالية من الحياة . والوطن هو نعرة بالية توارثها جيل عن جيل في غير إمعان ولا روية ، وهو آثار فكرة التعصب العتيق حين كانت القبائل المتشعبة تنبث في فجاج الأرض ومتاهاتها ، تخشى أن يتخطفها الناس من حولها ، وهو لفظ جاف لا يحمل في ثناياه إلا صورة من جشع الإنسان الأول وكلبه حين اضطربت الأنانية في نفسه — لأول مرة — فاختار قطعة من الأرض ووضع حوالبها الشوى والعلامات ثم قال : هذه ملكي .. هي وطني ! »

ونسيت أن الوطن روح تتدفق في مسارب الدم وتخفق بين طيات القلب ، وهو تاريخ حي ينبض في ملاعب الصبا ومسارح الشباب ، هناك تحت الدوحة الباسقة على شاطىء النيل ، وفي ظلال شجرة الجميز على ضفة الغدير ، حيث تداعبهما أنفاس الصبح الندية أو تمايلها نسمات الأصيل الهينة ، والسماء صافية والجو معطر ، وصوت خرير الماء يصاعد نغماً شجياً يلعب بالفؤاد ويعانق القلب ويهز المشاعر .

هناك في مركب الحياة على بساط الطبيعة المندمي وهو يتراقص في رأي العين ليرقع لحناً عذباً فيه جمال الحياة وجمال الموسيقى ...

وقلت « إن الوطن فكرة تتفجر من خلالها ألوان من صراع القوميات العاصف وتفور من جنباتها ضروب من الحروب الطاحنة فتدفع العالم ليتردى في هاوية من الهلاك والدمار ... هاوية ما لها من قرار ... آه ، لو أصبحت الدنيا كلها وطناً واحداً ، إذن لانعدمت الآثام والشرور ! والوطن هو قانون الغابة في المملكة الحيوانية لأنه يوحي للأسد بأن يحمي حوزته ويذود عن عرينه ، ثم لا يتورع من أن يقتحم ركناس الظبي الوديع فيفتك به ويهدم داره » .

ونسيت أن الوطن هو أم يتدفق الحنان من قلبها ، وأب يترقب العطف من حناياه ، وأبناء هم نور العين وجمال الحياة وبهجة العمر وسعادة القلب ، وأهل تهفو بهم النفس ويأنس إليهم الفؤاد ، وهو عش الطير يأوي إليه ليجد الراحة من عناء العمل ويلمس الطمأنينة من عراك العيش ويشعر بالأرض من فرع العاصفة . أرأيت — يا صاحبي — طيراً يحوم حول بقايا عشه المهدم بعد أن عصفت به ريح صرصر عاتية أو عبثت به يد غشوم قاسية ؟ إنه — ولا ريب — يتضرم أسى ولوعة ويتزى ألماً وحسرة لأن عشه الحبيب قد تمزق فوجد — في قرارة نفسه — فقد وطنه العزيز .

هذا هو الوطن في نفس الطير ، فما بال الإنسان ؟ ولكنك أنت أحسست الضياع في طفولتك والحرمان في شبابك والوحدة في رجولتك ، فلا عجب إن أنت كفرت بالوطن لأنك لم تستشر معناه إلا في تلك الحجرة الضيقة المظلمة في ذلك الزقاق القذر الوضيع حيث عشت وحدك ضائعاً منبوذاً ؛ فحملت لأهلك ووطنك كراهية وبغضاً ، وتأرثت نفسك حقداً وحسداً ، وحاولت — جاهداً — أن تضع من جمال الوطن وفتنته وأن تثلب فنونه وآدابه وأن تحتقر ذكاءه وعبقريته وأن تحط من صفاته وروعته عسى أن تشفي داء نفسك السقيمة أو أن تنقع غلة قلبك المريض ورحت تنافح عن الأجنبي وتشيد بعلمه وترفع من قدره لأنه نفخ فيك أنت ، يا صاحبي ، من روحه ووسمك بسماته وخلق منك فيلسوفاً كبيراً ، تفلسفت آراؤه نكران الوطن والدين واللغة .

* * *

وسمعتك تقول : « أما الدين فهو غل ثقيل يحط بهم

الرجال عن أن تنهض بجلائل الأعمال ، وهو حراسة الأخلاق السامية ، وهو روح التضامن والتواكل . ألا تعلم بأن اليهودي يتوسل إلى الثراء بالسرقة والربا ، ثم يسيطر — بالمال — على الأمم يصرّفها كيف شاءت أنانيته وأطماعه ؟ وأن الدول القوية تفترّ الشعوب الضعيفة بكلمات الشرف والعدل والرأفة وما هما غير الرياء والمكر والخداع وغير شره المال وكلب الذهب ؟ وأن الأخلاق القويمة لتصطرع في نفس الرجل القوي مثلما تصطرع الأحزاب في قلب الأمة الفتية فتنهش لحمها وتمصّ بحيرتها » .

ونسيت أن الدين نور سماوي يهبط إلى الأرض فتنجاب له ظلمات الحياة ومتاعبها ، ويتدفق في نواحي الروح فينيرها بالسلام والطمأنينة ويجذب الإنسان عن النوازع الأرضية ويترفع به عن الوساوس الشيطانية ليلبس ثوب الملك وهو إنسان يسير على الأرض ..

إنني أذكر — يا صاحبي — يوم أن أرغمت على أن أعيش في قرية نزل بها بلاء الحمى النخاعية الشوكية يحطم أهلها ويمصّ بشبابها فانطلقت إلى طبيب القرية — وهو صديقي — أسأله دواء أتقي به شر هذا الوباء الجارف ، فما راعني إلا أن أرى في نظراته علامة الدهشة ، فقلت له : « ما بالك ؟ » قال « ألست مسلماً ؟ » قلت « بلى ، وما للإسلام ولهذا البلاء النازل ؟ » قال . « فأنت تتوضأ خمس مرات كل يوم ، وفي كل مرة تتمضمض ثلاث مرات ؟ » قلت « نعم ! » قال « هذا وقاء من شر هذا البلاء » ثم اندفع في حماسة يحصي الفوائد الصحية للوضوء والصلاة . هذا هو رأي العلم في بعض معاني الدين ، فماذا تقول فلسفتك أنت ؟

والدين يشفي الأدواء الاجتماعية مثلما يشفي الأدواء الجسمانية

وصحتك تقول « وأنا رجل أناني لا أعتقد إلا في الكسب المالي ولا أوقن إلا بالفوز المادي . وهذا « فلان بك » رجل عظيم ، سلك إلى غايته طرقاً لا يردعه عنها دين ولا خلق ، فزوجه فتاة شابة ذات جمال ودلال تمهد له السبيل الوعر وتفتح له الباب الموصد ثم تدفعه إلى الهدف في سهولة ويسر ، وهو من ورائها يندفع حتى كاد أن يبلغ . ولو أنه تشبث بخرافة الدين أو تعلق بسراب الأخلاق لقعد عن الغاية وتخلف عن الركب » .

ونسيت أن الرجولة والشهامة والنزاهة كلها من أمور الدين.

ثم قلت « إن من عبث الأخلاق ما ترى : فالفضائل أشياء نسبية ، يتحلى بها الرجل من أوساط الناس فيبدو في أعين الناس فاضلاً كاملاً ويتمسك بها الرجل وهو من العظماء فيتمثله الناس مناقاً خادعاً . وإن الناس ليتندرون بالرجل العظيم إن هو حلا إلى المسجد والمسبحة والمصحف بقدر ما يسخرون من الرجل العادي إن هو عكف على مجالس الخمر والقمار والفجور . وإن الرجل العظيم ليسرق الآلاف فلا تزدريه عين ولا يحتقره قلب ، وإن سرق الرجل العادي درهماً واحداً كبّله القيد الحديدي وإن الزعيم اللئيم ليسطو على الشعب فيستلبه من ماله ومن مشاعره ليبيت بها في لذائذه وميراثه ثم لا يجد إلا التبجيل والتقديس » .

ونسيت أن ميزان الأخلاق — في رأي الدين — واحد لا يتغير : فالسارق لص أبداً ، ومن يفرط في عرضه هو ... هو الديوث .

ولكن لا عجب ، فأنت تريد أن تبلغ غاية المجد في غير كد ولا جهد ، وإن المرء ليستطيع أن يشبع رغبات نفسه ونوازع قلبه عن طريقين : الجهاد المتواصل والاستخذاء المهين الوضيع . وأنت قد رأيت على أن تستخذي لتيسك لتكون — في يوم ما — رجلاً ذا مكانة وشأن . وفاتك أن المجد الذي يقام على دعائم من المداهنة والخداع والتمويه سرعان متداع يوشك أن يهوي ويتهدم .

• • •

وقلت : « أما اللغة فقد انحطت عن غيرها من اللغات الحية ، فما ذا فيها غير كلمات سلبية جامدة وعبارات جافة قاسية وألفاظ واهية متداعية ، في حين أن اللغات الغربية تموج بالحياة وتنبض بالعمل وتخفق بالثقافة وتتألق بالعلم . ونحن أمة وهن عزمها وانحلت قوتها فذهبت — في ضعف — تفخر بما تلفظ بطن الأرض من آثار وتتعلق بأهداب خيال زال منذ زمان . لقد أصابتنا كبوة لا نستطيع أن نفيق منها إلا أن تتفتح أذهاننا في وجه الثقافة الغربية الفجة لتتفتح للثقافة الغربية الناضجة » .

ونسيت أن في اللغة مجد الأمة وعزتها القومية ، وأن من خلالها تتأرث حرارة الوطنية والكرامة . هذه اللغة — يا صاحبي — قد وسعت علوم اليونان وفلسفتهم في فجر النهضة العلمية الإسلامية واقتحمت باب الرياضة والفلك والطب ، ولم تقصر عن العلوم